

د. عماد الدين خليل

حقوق الطبع محفوظة

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

د. عماد الدين خليل

خطوات في الهجرة والحركة

بسم الله الرحمن الرحيم

خطوات في الهجرة والحركة

– ١ –

وضع رسولنا العظيم (صلى الله عليه وسلم) خطواته الأولى في الدرب صوب المدينة، وقلبه يخفق بهذا الدعاء (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وأجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا). وكان يعلم جيداً أن حركة الانسان في التاريخ لا تستقيم وتصل الى هدفها الا بأن يرفع الانسان بصره وفؤاده وعقله وسمعه وحسّه الى السماء يتلقى عنها الصدق والنصر، صدق الحركة وانتصار قيمها.. لكنه لم ينسَ لحظة، أن هذا التوجه الى السماء يجب أن يقترن بثبات الخطى على الارض، وبتحمل مسؤولية البصر

والسمع والفؤاد بأمانة كاملة .. وبصياغة الحرية الانسانية بما ينسجم ، في المدى القريب والبعيد ، مع قدر الله ونواميسه وسننه . وبدون هذا التناغم بين مشيئة الله وحرية الانسان .. بين نور السماء وشفافيتها .. وبين كثافة الارض ووعورة الطريق .. بدون هذا الحوار الدائم الفعال بين الانسان وخالق الانسان .. بين انطلاق الروح وشد الجسد .. بدون هذا هذا التواصل الدائم بين الحضور والغياب .. بين عـــالم المشاهدة المباشرة والغيب البعيد.. بدون هذا وذاك لن تكون هناك حركة جادة .. ولا مصير عظيم .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل قلبه يخفق بدعاء الله .. وهو يرسم الخطط ، ويضع الضمانات، ويهيء المواد والامكانات والدفوع الكفيلة بايصاله الى هدفه .. لم يجيء هذا الدعاء قبل التخطيط فحسب ، ولا جاء بعده فحسب ، فليس في علاقة الارادة البشرية بالمشيئة الالهية — خلال الحدث — قبلية ولا بعدية .. وإنما تسير الاثنتان في انسجام رائـــع .. لأن هذه من تلك ، ولأن الانسان في أصغر جزئيات الحركة وفي أكبرها إنما ينفذ قدر الله وناموسه في الأرض ، في مدى الحرية التي أقيمت له . أما أن يجيء

الدعاء والتوجه قبل التخطيط فحسب ، أو بعد التنفيذ فحسب ، فهو من قبيل الثنائيات التي ترفضها مبادىء السماء أشد الرفض لأنها تفصل بين الله والانسان ، وتقسم حظ الطرفين في حركة التاريخ ، بما لا يتفق أساساً والسنن الكبرى.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم هيأ الأسباب (الارادية) الكاملة لنجاح الحركة وهو ينظر الى الله .. ووضع خطواته الأولى على الدرب وهو يدعو الله .. وما لبثت الأسباب أن آتت أكلها ، والخطوات أن انتهت الى هدفها .. وظل الرسول ينظر الى الله ويدعوه .. وما أحرانا في يوم هجرته أن نتمعن في هذه التعاليم ، في زمن طغت فيه التفاسير والأهواء ، وكل قال عنده ، شرقياً كان أو غربياً ، لكن المسلمين لم يقولوا — بعد — كل ما عندهم .

— ٢ —

استغرق (هيكل) الهجرة زمناً طويلاً .. حمل الرسول وأصحابه معاولهم وبدأوا يحفرون الأسس من أجل أن يستقيم البناء . ان الاسلام جاء لكي يعبر عن وجوده في

عالمنا من خلال دوائر ثلاث ، يتداخل بعضها في بعض ، وتتسع صوب الخارج لكي تشمل مزيداً من المساحات : دائرة الانسان ، فالدولة ، فالحضارة . ولقد اجتاز الاسلام في مكة دائرة الانسان ، ثم ما لبثت العوائـــق السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية أن صدته عن المضي في الطريق صوب الدائرة الثانية حيث الدولة .. لأنه بلا دولة ستظل دائرة الانسان ، التي هي أشبه بنواة لا يحميها جدار ، ستظل مفتوحة على الخارج المضاد بكل أثقاله وضغوطه ، وامكاناته المادية والروحية . ولن يستطيع الانسان (الفرد) أو (الجماعة) التي لا تحميها (دولة) أن تمارس مهمتها حتى النهاية ، سيما إذا كانت قيمها وأخلاقياتها تمثل رفضاً حاسماً لقيم الواقع الخارجي والتجربة المعاشة . ولا بد اذن من ايجاد الارضية الصالحة التي يتحرك عليها الانسان المسلم ، قبل أن تسحقه الظروف الخارجية أو تنحرف به عن الطريق : وليست هذه الأرضية سوى الدائرة الثانية ، وليست هذه الدائرة سوى الدولة التي كان على المسلمين أن يقيموها وإلا ضاعوا .

وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم تبدأ منذ اللحظات

التي أدرك فيها أن (مكة) لا تصلح لقيام الدولة ، وأن واديها الذي تحاصره الجبال ، وكعبتها التي تعج بالأوثان ، لا يمكن أن تكون الوطن . ومن ثم راح الرسول يجاهد من أجل الهجرة التي تمنح المسلمين دولة ووطناً ، وتحيط كيانهم الغض بسياج من إمكانيات القوة والتنظيم والأرض ! ! !

— ٣ —

ولن نستطيع أن نحدد بالضبط تلك البدايات .. لكننا نعلم جميعاً أن رسولنا صلى الله عليه وسلم بدأ نشاطاً واسعاً ومشهوداً إثر خروج المسلمين من حصارهم القاسي في (شعب أبي طالب) ، ذلك الذي استغرق سنين طوالاً ، وجاء إشارة حاسمة إلى أن المشركين عامة ، والقيادة الوثنية القرشية على وجه الخصوص ، لا يمكن بحال أن تهادن المبدأ الجديد ، الذي جاء يمثل رفضاً حاسماً لكل قيم الوثنية وأهدافها وتقاليدها ومصالحها .. وأنهم سيظلون يدفعون حتى النهاية الأخطار التي يمثلها الاسلام بوجه أهدافهم وتقاليدهم ومصالحهم .

والرسول عليه الصلاة والسلام – الذي علمتنا سيرته مدى الواقعية الايجابية التي كان يتمتع بها، والحرص على الطاقة الانسانية ألاّ تتبدد في غير مواضعها – سرعان ما نجده يتحرك صوب الخروج الى مكان جديد يصلح لصياغة الطاقات الاسلامية في إطار دولة تأخذ على عاتقها الاستمرار في المهمة بخطى أوسع، وإمكانات أعظم بكثير من إمكانات أفراد تتناهبهم شرور الوثنية من الداخل، وتضغط عليهم قيم الوثنية من الخارج، ويصرف طاقاتهم البناءة اضطهاد قريش، بدلاً من أن تمضي هذه الطاقات في طريقها المرسوم.

إن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بدأت فعلاً يوم خرج الى الطائف، فصد صداً قاسياً، لكنه لم ييأس، لأنه يعلم يقيناً أن الخاتمة ستكون له، فقط إذا استمر على بذل جهده البشري الكامل في البحث والتخطيط للهجرة التي ستعقب دولة .. وللدولة التي ستعقب انصاراً .. ووقف عند أسفل جدار لبستان في الطائف، ريثما يستريح، ونادى ربه (إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي) !! ثم واصل الطريق وراح يتصل دون كلل بوفود القبائل التي كانت تنهال على

مكة في مواسم الحج ، يعرض عليهم الدين الجديد ، ويعرض مع الدين الجديد طلباً بأن يمنحوه أرضهم ويحموه ، لكي يتمكن من (الاسراع) في أداء مهمته الصعبة قبل أن يجيء البين ويضطرب المصير .

إن الهجرة كان يمكن أن تكون الى الطائف ، أو الى ديار أية قبيلة عربية قوية الجانب عزيزة المنال ، سواء كانت بلادها في الشرق أم في الغرب .. لكن أياً من هذه القبائل (بنو كندة ، بنو عامر بن صعصعة ، بنو حنيفة ... الخ) لم تمد يدها مبايعة الرسول ومرحبة بهجرته الى أرضهـــا وديارها .. فقد أعمت الوثنية الجاهلية قلوبهم وأبصارهم عن الشرف الذي كان يمكن أن يحظوا به لو قالوا للرسول : بايعنا .. ونصرنا ! !

— ٤ —

ويمضي الرسول في بحثه عن الطريق الذي سيهاجر عليه وأصحابه صوب هدفهم المحتوم . وكان أن بعث الله نفراً من يثرب .. ساقتهم إرادته التي لا تغلب الى الرسول في

السنة الحادية عشرة للبعثة .. فالتقوا به عند العقبة ، المنفذ الذي لا بد من اجتيازه للقادمين من يثرب صوب أم القرى . وعرض عليهم الرسول مبادىء الاسلام، غاية في الوضوح والسماحة والعدل والمساواة والانسجام مع تكوين الانسان ونشاطه وأهدافه .. فما كان منهم إلا أن لبوا الطلب ، وأعلنوا إسلامهم ، ووعدوا الرسول بأنهم سيرجعون الى يثرب ويبشرون بدعوته العادلة هناك . وما لبثت السنة التالية أن جاءت الى الرسول عليه الصلاة والسلام في نفس المكان بوفد ثان من أوس يثرب وخزرجها : اثنا عشر رجلاً ، من بينهم الستة الذين أسلموا من قبل .. جاءوا لا ليعلنوا إسلامهم هذه المرة بل ليبايعوا الرسول على الاسلام ، تمسكاً بأهدافه ، والتزاماً بقيمه وأخلاقياته . ولم يشأ الرسول أن يتسرع الخطوة التالية ويعرض عليهم طلبه القديم : أن يمنحوه أرضهم وبلدهم وأن يحموه .. انه بذكائه العجيب وبالهدى الإلهي الذي يمده بنوره ، كان ينتظر نتيجة مساعي أصحابه الجدد ، ويجس النبض ويختبر الامكانات . إنه في المرة الاولى اكتفى بأن يعرض الاسلام ، وأن يودع الستة الذين أسلموا دون أية بيعة ، وفي المرة الثانية بايعوه

على الجانب السلمي — إذا صح التعبير — من برنامج الاسلام، فأرسل معهم داعيته الشاب مصعب بن عمير — الذي لم يشأ أن يجازف به في المرة الأولى — أرسله هذه المرة بعد أن استبانت له ملامح المستقبل ، لكي يتولى شئون الدعوة والتثقيف العقائدي هناك .

ومرت أشهر وأشهر ، ومصعب يعمل في المدينة بهمة لا تعرف كللاً ولا فتوراً .. يتحرك بالقرآن ، ويحرك أفئدة الناس هناك وعقولهم بالقرآن .. كانت آيات الله تملك في بنيتها المعجزة سحر الاقناع ، وكان مصعب يزيدها سحراً في تلاوته اياها وسط حشود الناس التي كانت تجتمع مبهورة الأنفاس من حوالي مصعب في أزقة المدينة وطرقاتها، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم .. وعندما اقترب موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة ، غادر مصعب يثرب ، يطير به الشوق للقاء رسوله وقائده .. وفي مكة اجتمع به وعرض عليه نتائج مساعيه في يثرب .. وأنه عما قريب سيلتقي الرسول بوفد كبير منهم تقر له عينه ويطمئن به باله.

وعند العقبة أيضاً .. اجتمع الرسول (عليه الصلاة

والسلام) بأعضاء الوفد الموسّع الجديد .. كان يضم هذه
المرة ثلاثاً وسبعين رجلاً وامرأتين .. اتفق معهم سراً على
أن يوافوه في الثلث الثاني من الليل ، حين ينام الناس
وتغفل العيون .. يتسللون اليه واحداً واحداً واثنين اثنين ..
وتمت البيعة الثانية .. البيعة الكبرى .. هذه المرة صريحة
واضحة مكتملة ، **على كل جوانب الاسلام ، سلماً كان
أو قتالاً** ، ومدوا اليه أيديهم مصافحين ، ومقسمين بالله
الواحد الذي آمنوا به ، أنهم سيحمون الرسول وينصرونه ،
وأنهم سيرفعون السلاح في وجه أية قوة في الارض ، سوداء
كانت أم حمراء ، تسعى الى الفتك به وبدعوته وأصحابه .
وقبل أن يرجعوا اختار الرسول من بينهم اثني عشر نقيباً ،
ليشرفوا بأنفسهم على سير الدعوة في يثرب ، حيث استقام
عود الاسلام هناك وكثر مثقفوه ، وحيث أراد الرسول
بفقهه العميق لأساليب الدعوة ، أن يشعرهم أنهم لم يعودوا
غرباء لكي يبعث اليهم أحداً من غيرهم ، وأنهم غدوا أهل
الاسلام وحماته وأنصاره .

خطوات محكمة ، واستخدام حصيف للامكانات ..
وفقه عميق لخطوات الحركة .. يرافق هذا كله هدى السماء

الذي لم يفارق خطى الرسول لحظة ، والذي ساق اليه ــ بما أوجده من ظروف صعبة في يثرب ــ هذه الوفود التي جاءت تحمل اليه ما كان يرجوه ويعمل على تحقيقه جاهداً .

— ● —

أصدر الرسول أوامره الى أصحابه بأن يبدأوا هجرتهم ، مختفين ، متفرقين قدر الامكان .. وبدأت طرقات مكة وبيوتها وأزقتها ونواديها تشهد يوماً بعد يوم غياباً مستمراً لأصحاب الرسول .. أما هو صلى الله عليه وسلم فكان ينتظر تأمين هجرة أصحابه .. ثم يبدأ هو ومن سيختارهم للبقاء معه خطواته صوب المدينة ريثما يتلقى إشارة الوحي الكريم بالتحرك .

وفتح القرشيون يوماً أعينهم على مكة وقد أقفرت من المسلمين !! لقد غادروها صوب المهمة التي تنتظرهم مخلفين وراءهم أموالاً وبيوتاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً ومتاعاً كثيراً .. إن الهدف الذي تحركوا من أجله أغلى وأثمن من الأموال والبيوت والمتاع ، وأكثر الحاحاً من تلبية مطالب

جسدية أو حياتية أو اجتماعية .. انهم مستعدون لأن يبذلوا أرواحهم ودماءهم في سبيل هذا الهدف الذي ينتظرهم هناك في نهاية الهجرة .. فكيف لا يتخلون عن الأموال والنساء والمتاع ؟!

وها هي رءوس قريش تجتمع في (دار الندوة) قبل أن تفلت الفرصة من أيديهم ولات حين مندم .. وطرحت آراء باعتقال الرسول عليه السلام وتكبيله بالأغلال ، او بنفيه بعيداً في منقطع الصحراء .. ولكن رأياً بقتله وتفريق دمه بين القبائل هو الذي حاز الموافقة والاعجاب. انهم ان استطاعوا قتل الرسول عليه السلام فقد استطاعوا قتل الدعوة التي لم تستكمل أسبابها بعد .. وان طالبتهم بنو هاشم بدمه فسيشيرون الى العشائر جميعاً والى سيوف أبنائها حيث تقطر دماء الرسول ! !

ويجيء أمر الله يحمله الوحي الى الرسول : تحرك يا محمد.
كانت تلك هي الاشارة التي ينتظرها الرسول بفارغ الصبر .

لكن شوقه للهجرة ، وتحرقه لأن يضع خطواته على الارض الموعودة حيث أصحابه القدامى والجدد ينتظرونه على أحر من الجمر .. ورغم يقينه الكامل بأن الله معه يرعاه ويسدد خطاه .. فانه لم يتعجل الحركة ، ولم يرتجل الخطوات.. كان عليه أن يخطط للهجرة مستخدماً كل ما وهب من إمكانات الفكر والبصيرة والارادة .. لأنه بهذا وحده يستحق نصر الله ووعده .. والا فلأي شيء منحنا الله بصائر وعقولاً وحرية وقدرة على التحرك والتخطيط ؟! وما أبرع البرنامج الذي رسمه رسولنا عليه السلام من أجل أن يصل الى الهدف بأكبر قدر ممكن من الضمانات .

انتقى من بين أصحابه أول اثنين أسلما في تاريخ الدعوة : أبا بكر وعلياً (رضي الله عنهما) ، واستبقاهما لكي يؤديا الأدوار التي رسمت لهما في حركة الهجرة . أما علي فلكي يؤدي مهمة مزدوجة .. الايهام ، ورد الامانات الى أهلها .. ورب قائل يقول : ان وراء الهجرة هدف أكبر بكثير من التمسك بجزئيات أخلاقية قد يسمح الظرف الخطير بتجاوزها لكن منطق رسول الاسلام شيء آخر .. ما الفرق بين الاسلام وبين المبادىء الاخرى إذا كان هو متأسياً بها في

تخليه عن أخلاقياته في ساعات المحنة والخطر ؟ وماذا سيقول المشركون لو غادر الأمين مكة دون أن يرد إليهم أماناتهم .. ما أسرع ما يمكن أن يتهموه حيث يأكلهم الغيظ : الأمين تحول الى سارق ، وضاعت الأمانة .. وحاشاه !!

أما أبو بكر فقد اختير ليكون رفيق النبي وأخاه في هجرته .. فما أعظم حظك يا أبا بكر .. تسلل اليه الرسول في ضحى أحد الأيام ، على غير عادته في التردد على داره صباحاً أو مساء .. خطوة من خطوات الايهام والتدبير بأولئك الذين يريدون أن يمكروا به .. ودهش أهل الدار لمجيء الرسول في وقت غير ما اعتادوه ، لكن الرسول عليه السلام لا يلتفت الى دهشتهم ، بل يتجه الى رفيقه فوراً ويطلب منه أن يخرج ابنتيه من المكان . فيطمئن أبو بكر الرسول بأنه ليس ثمة ما يخشى .. ويتكلم الرسول (إن الله أذن لي في الخروج والهجرة) ، فيرد عليه الصديق وهو يهتز فرحاً (الصحبة يا رسول الله) ؟! فيجيبه الرسول : (الصحبة) . وتقول عائشة : (فوالله مـــا شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبـــكي من الفرح حتى رأيت أبـــا بكر يبكي يومئذ) !!

ومعاً استكملا الخطة ووضعا الأسباب ، وتركا — من
ـ مصيرهما ومصير الدعوة لله .. صانع المصائر ومقدر
لدار . التسلل من شباك خلفي على غفلة من قريش ..
جه جنوباً على طريق اليمن واللجوء إلى إحدى مغارات
، ثور هناك .. التوقف عن السير ثلاثة أيام ريثما تخف
ولات القرشيين المستميتة في البحث عن الرسول .
الانطلاق — بعد ذلك — صوب المدينة في طريق وعر
، مطروق ، يعينهما في ذلك دليل ماهر من المشركين
سهم ! ! اختير اعتماداً على كفاءته العالية كدليل ، وعلى
نته التي لا بد وأن يكون الرسول قد سبر أغوارها . أما
ء تحركات القرشيين ومطارداتهم فسيأتيهما بها عبد الله بن
بكر ، وأما توفير الطعام فسيقوم به راعي أبي بكر ،
د الله بن أرقط ، الذي كلف باراحة الاغنام عند الغار
ساء كل يوم ، كي يحتلبها المهاجران ويشربا من لبنها ..
ما كلفت أسماء بتوفير الطعام في المرحلة التالية من الهجرة .
ما آثار الأقدام التي سيخلفها عبد الله بن أبي بكر لدى
ابه وايابه والتي تقود الى الغار مباشرة فإن هناك راعي أبي

بكر ، ابن أرقط ، يعود في الأمسيات في أعقاب عبد ال
لكي تطمس حوافر الأغنام على خطوات الرجال ! !

خطة محكمة ورائعة .. ولا يبقى إلا أن يتنزل نصر ال
على قادة **استكملوا كل الأسباب** التي منحهم الله اياها .
إنه التوافق المنغم الرائع ، الذي تحدثنا عنه ، بين مشيئة الله
وإرادة الانسان، وبين هدى الله وخطوات عباده الأبرار .

— ٨ —

وفي تجربة الهجرة يتنزل نصر الله ، فعلاً مباشراً مرئياً
ثلاث مرات .. فيما عدا خط الهجرة والتاريخ كله حيث
إرادة الله التي لا راد لها .. لكننا هنا نريد أن نشير الى
أفعال الله **المباشرة** في هجرة رسوله عليه الصلاة والسلام
مرة لدى مغادرته داره ، في أعقاب ليل مريع أحاط أبنا
القبائل المسلّحون طيلة ساعاته بدار الرسول ينتظرون اللحظ
التي سيطيحون فيها برأسه ويفرقون دمه بين القبائل .. الا
أن هذه اللحظة السوداء لم تجيء ولن تجيء .. لقد فتح الرسول
الباب على مصراعيه وراح يقرأ آيات من سورة يس :

« يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي الى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون .. » !! وعبر هذا السد الذي أغشى به الله أبصار المشركين انطلق الرسول ورفيقه الى الهدف على الصراط المستقيم .

ومرة أخرى عند الغار .. وما أخطر ساعات الغار بأيامها ولياليها .. لقد رأى أبو بكر بأم عينيه نعال المشركين المطاردين الحانقين تخفق عند أسفل الغار .. فارتعد فرقاً .. ليس على نفسه ، فما أهون النفس على أصحاب رسول الله وعلى رفيقه وصدّيقه بالذات .. لكن على الرسول نفسه وعلى ما يمثله الرسول . فيهمس في أذنه : (لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا) !! ويجيء رد الرسول منبثقاً عن تلك اللحظات العليا حيث يقف الله مع عباده يدفع عنهم .. (يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟!) .. وتطيش ألباب المشركين ، وعبثاً يرهق مقتفو الآثار أنفسهم .. ان

الرسول ورفيقه في حماية الله .. وكفى .. ودون الوصول اليها المستحيل .. ولو اجتمعت جنود الارض كلها عند الغار تطالب برأسه .. وما أروع كلمات الله وهو يعلن هذه الحماية التي لا حماية بعدها : (الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) ؟ !

ومرة ثالثة في الطريق الى يثرب .. ان (سراقة بن مالك) الذي خلبت لبّهالجائزة التي رصدتها قريش لمن يأتي بالرسول حياً أو ميتاً ، يلهث الآن ركضاً وراءها ، بفرسه المنطلقة ورمحه المصوب الى هدفه .. ان سراقة كألوف من الأعراب ، بل كألوف من الناس .. نلتقي بهم في كل مكان وزمان .. أولئك الذين ما أن تبرق أمام أعينهم قطع النقود ، وتطرق أسماعهم أصوات الذهب والفضة وهي ترن ، حتى يصبحوا على استعداد لأن يبيعوا مبادئهم وضمائرهم وشرفهم وعرضهم ، من أجل أن يصلوا الى قطع النقود ، ويضعوا أيديهم على أكوام الذهب والفضة .. انهم

موجودون في كل مكان وزمان .. ولذا كانت خير وسيلة للإتيان بالزعماء الهاربين من وجه الظلم والطغيان هو أن يعلن عن جائزة قدرها (٠٠٠٠) لمن يأتي بالهارب حياً أو ميتاً .. لكن إرادة الله لن تدع الرغائب السافلة تطغى على الأهداف العليا .. ان هذا الطغيان يحدث – يوم يحدث – **عندما يتخلى أصحاب الأهداف الكبيرة عن حشد طاقاتهم والتخطيط العاقل لخطواتهم والتلقي الكامل عن خالقهم حينذاك تغدو كل آمالهم وتمنياتهم كالزبد الذي يذهب جفاء ..** تكنسه الأقذار وتعجنه في تيارات الماء عجناً .. أما والرسول قد استكمل الأسباب ، فإن سراقة تعثر به فرسه وتمرغه في التراب ، كلما اقترب من هدفه .. مرة ومرتين .. فيطلب الأمان .. انه الآن لا يطارد رجلين مرهقين قد عصرهما الجوع ، وأرهقهما السفر الطويل ، والتشرد .. لكنه يقف بازاء جند الله التي لا ترى ، فأنى له ما يريد ؟ انه بعد دقائق يلوي زمام فرسه ويقفل عائداً ، وكلما رأى أحداً من اللاهثين كالكلاب الجائعة رده قائلاً : كفيت هذا الوجه . وذلك ما طلبه منه الرسول !!

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الثال
عشرة للبعثة ، وصل الرسول وصاحبه مشارف يثرب
حيث جرى لهما استقبال حافل من قبل أولئك الذين انتظرو
رسولهم طويلاً .. وها هي تكبيراتهم تشق أجواز الفضاء
إنهم سيبدأون معه ، وبه ، ومن أجله وأجل دعوته ، عهد
جديداً كتب لهم شرف وضع أسسه التي سيقوم علي
البناء ... الدائرة الثانية من دوائر الدعوة ، **دائرة الدولة التي**
ستحمي المسلمين أفراداً وجماعات ، وستمنح الاسلا
خطوات حاسمة وسريعة في طريق النصر .. فلا عجب أ
يخرج الأنصار بأسلحتهم يستقبلون الرسول ، فهاهم أولا
الجنود الذين سينضمون الى إخوانهم المهاجرين ، وسيبنو
معاً ، بقوة العقيدة والسلاح ، الدولة التي ستصنع حضار
تشرف الانسان ، في كل مكان وتباركه ، وتضعه موضع
الحق الذي أراده الله عندما استخلفه ومنحه السيادة عل
العالمين .

إن اليوم الثاني عشر من ربيع الأول هو نهاية حرك

حاسمة من أجل إقامة (الدولة) لكنه في الوقت نفسه بدء حركة حاسمة أخرى من أجل تعزيز الدولة وإقامة (الحضارة) تماماً كما كانت بعثة الرسول — في البدء — حركة صوب تكوين (الانسان) ، صانع الدول والحضارات ! !

— ١٠ —

ولن نغادر حركة الهجرة قبل أن نستمد منها تعاليم أخرى قد تعيننا على فهم وتفسير تاريخ البشرية عامة وتاريخنا الاسلامي على وجه الخصوص .. إن أي حدث تاريخي — كما يتضح من خطوط الهجرة — إنما يجيء **تعبيراً عن إرادة الله التي تصوغه من خلال إرادة الإنسان** .. أو مباشرة عن طريق اتصالها بالزمن والتراب . ولا تمكن دراسة تاريخ الكون ، وتاريخ البشرية وتاريخ الأحياء الا من هذا المنطلق . إن الفعل الالهي يتخذ أشكالاً ثلاثة لخلق الحدث وصياغته : **أولها** مباشرةُ الفعل التاريخي (كما حدث في تجربة الهجرة ، في تلك اللحظات التي كان الرسول يجابه فيها موقفاً يتعدى حدود قدراته وارادته وتخطيطه) **والشكل الثاني** : يتم عن طريق ما يمكن تسميته بالسببية التاريخية ، أي تهيئة الأسباب

لتوجيه الأحداث هذه الوجهة أو تلك .. وقد تكون
الاسباب مادية طبيعية أو حيوية إنسانية ، وقد تجيء
شكل مجموعة من السنن التي تنظم حركة الكون والحيـ
والانسان، والتي تفرض حتمية قانونية على بعض أحد
التاريخ (وقد رأينا في تجربة الهجرة كيف هيأ الله سبح
الأسباب لأن تكون يثرب الأرضية التي تقوم عليها د
الاسلام ، ولأن يكون أبناؤها الطاقات البشرية التي تن
هذه الدولة وتحميها ريثما يتم البناء) . أما الشكل الثال
للفعل الالهي فيجيء عن طريق الحرية الانسانية ذاتها ، وا
هي في مداها البعيد جزء من إرادة الله في خلق الافعـ
والأحداث . لقد منح الله الحرية للانسان ابتداءً لكي يص
تاريخه الفردي والجماعي ، ولكي يشكل مصيره فر
وجماعة ، اعتماداً على ما ركب في وجوده من قوى العة
والارادة والانفعال والحسّ والحركة (وهذا يبدو في تجر
الهجرة من خلال تلك الخطط الاجتهادية التي وضه
الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي قدمت لحركته صو
إقامة الدولة، ضمانات حاسمة في طريق النصر) . والانس
بدوره ، عندما يستخدم حريته لصناعة الحدث وتوج

صير ، إنما يعتمد على مقدمات لا يمكنه بحال الاستغناء
منها : الزمن ، التراب ، ثم التعاليم والقيم والاعراف
التقاليد ، وضعية كانت أو دينية .. وها هو الرسول في
جرته ينسّق خطواته صوب هدفه ، مستخدماً هذه العناصر
ثلاث ، متخذاً منها عجينة في صياغة الحركة وضمان
لأهداف .

—١١—

إن معظم مذاهب التفسير التاريخي ، وضعية كانت أو
دينية ، قدمت معطياتها متخطية الاجابة عن هذا السؤال
لمهم : ما هي العلاقة بين الله سبحانه وبين **الطبيعة** ، بما فيها
لقوى المادية ، **والانسان** ، بما أنه روح ومادة ، في صنع
لتاريخ وإقامة الحضارات ؟ وهل من المحتم أن تتكىء
حداث التاريخ على **عامل واحد** من هذه العوامل الثلاث ،
يلغى العاملان الآخران ، أو على الأقل يغدوان ظلالاً
باهتة لفاعلية العامل الرئيسي ؟ ولماذا هذه الجدران التي
قيمت بين الله والطبيعة والانسان ؟

إن معظم مذاهب التفسير تخطت الاجابة عن هذا السؤا
تاركة في طريقها ثغرة عميقة ، ومنغلقة في بحثها عن الفرضي
الخاطئة التي تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد وتلغي العوامل
الاخرى الغاء .. ومن ثم برز **التفسير السحري** (الميتافيزيقي
للتاريخ وتطور ليعبر عن نفسه **بالتفسير اللاهوتي** الذي سا
تفكير مثقفي العصور الوسطى الأوربية ، كما برز **التفسير
الفردي (البطولي)** للتاريخ . والتفسيرات الطبيعية التي
بلغت أقصى حدتها بالمادية التاريخية التي يصفونها (بالعلمية)

واقد ادرك بعض فلاسفة التاريخ المعاصرين ، وعلى
رأسهم اشبنجلر ، وتوينبي ، وكيسرلنج ، والناقد كولن
ولسون ، أبعاد هذا الخطأ ، فعادوا خطوة متمعنة الى الورا
لكي يجيبوا على السؤال الأول ، ويجتازوا – من ثم – طريق
مرصوفاً لا ثغرات فيه . والحق أن التفسير الحضاري ، تقد
خطوات في هذا المجال ، خطوات تتسم – الى حد ما –
بالاتزان والتعقل والموضوعية والشمول الذي يستند الى نظر
كلية وإدراك عميق لمقومات الحدث التاريخي . ولكن الموقع
الذي رصد منه هؤلاء التاريخ وفلسفوا حركته ، تقف أمامه
كثير من المرتفعات كسدود وحواجز تمنع الرؤية الكاملة

الحكم الشامل الصحيح . كما أن **التجربة النفسية** التي
سوا بها أحداث التاريخ تحمل الكثير من عناصر الذاتية
دوجة والتأثيرات العلمانية . لذا فإنهم لم يقدروا على إعادة
لتئام الكامل بين فاعلية العوامل الثلاث ، وأبقوا بعض
لجدران المزيفة ، مرئية وغير مرئية ، بين الحضور والغياب ،
لله والانسان ، والمادة والروح ، والطبيعة وما وراء الطبيعة .

صحيح أنهم أعلنوا أن الحدث التاريخي لا يمكن أن
صنعه قوة واحدة ، لأن أية (حركة) تاريخية إنما هي نتاج
ء خلاق بين الله والانسان والطبيعة – بما فيها الزمن –
ن إغفال أي عنصر منها إنما هو جهل بالأسس الحقيقية
ركات التاريخ .. لكنهم لم ينجوا من الوقوع في أسر
مذهبية المحدودة . والنظرة الذاتية القاصرة ، واضطراب
جربة النفسية في عملية الاستشراف والاستقراء التاريخي ،
مر الذي أدى الى تأرجح مواقع رؤياهم ، والوقوع بالتالي
كثير من الأخطاء ، ليس هذا بطبيعة الحال مجال سردها
حليلها .

ثم ان هجرة الرسول — عليه الصلاة والسلام — تعل
كيف يرتبط تاريخ الدعوات بالحركة .. حركة الانس
الفرد ، وحركة الجماعة . كما تعلمنا أنه ليس من الم
أبداً أن تكون (الحركة) صدوراً عن صراع النقيض
كما أكد هيغل وماركس وغيرهما ، بل أنها في كثير
الأحيان تجيء بمثابة استجابة داخلية ، مقرونة بعمل خارج
لنداء من فوق .. إن هذا الحوار بين القيم العليا والوج
السفلي ، هو الذي يحرك — في أحيان كثيرة — أحدا
التاريخ على خط صاعد . إن المثل الأعلى كان دائماً بمث
هدف يتحرك اليه الذين يتخبطون تحت ، أو الذين يتقلب
في الظلمات ، أو الذين يتعذبون بشتى صنوف العذا
وتمنعهم القوى العقائدية المضادة من تحقيق أهدافهم. (والهج
تمثل حركة هذه الجماعة الأخيرة) .. ان بحث الضائع
والحائرين والمعذبين والمأسورين عن النجاة ، عن م
أعلى ، عن هدف يطمحون للوصول اليه .. هذا البحث
الجاد كان في معظم الأحيان المحرك الذي يسوق الأفر
والجماعات الى مصائرهم ، ويصنع تاريخهم .. واذن ف

الخطأ والتزييف أن نصدر حكماً على كل حركات
ريخ بأنها جاءت نتيجة لصراع النقيضين ..

إن (الصراع) نفسه يتخذ أشكالاً عديدة لا تقتصر
تقابل الضدين وتغلّب أحدهما على الآخر.. إنه يبدو —
يانا — إرادة ذاتية تسعى الى التوحد والائتمان الذاتي .
وجدان الانسان ومع المحيط الخارجي ، ويبدو أحياناً
رى رغبة فعالة في تحقيق تفاهم متبادل وسلم عام بين
نسان والوجود .. وهو يبدو أحياناً ثالثة عملية استقطاب
وى والطاقات ، وتنظيم لها ، وحماية لقدراتها من أجل
تصب جميعاً في مجرى المبادىء الجديدة والدعوات
كبرى (كما حدث في تجربة الهجرة) . وكل هــذه
أشكال من الصراع لا نجد فيها تقابل نقيضين بقدر ما نجد
اولة للالتئام والتوحد والاستقطاب والتجمع .. وبعد
ا — وخلاله أيضاً — لا بد للحركات أن تجتاز صراعاً بين
قائض ، لكنها نقائض من مستويات شتى : نفسية وفكرية
عقيدية ووجدانية وعرفية واجتماعية وسياسية واقتصادية
خ ... بمعنى آخر أنها نقائض بشرية ، فيها كل ما في
انسان من مكونات روحية ونفسية ومادية .. ومن التزييف

لتاريخ الحركات أن نقصر النقائض على جانب فحسب
هو الجانب العقلي (كما عند هيغل) أو المادي الاقتصاد
(كما عند ماركس) ، لأن هذين الجانبين لا يغطيان
مساحة الفاعلية الانسانية التي تنبثق عن رغبة إرادية شا
في مصارعة كل ما يتعارض مع إرادتها ووجودها وأهدافه
روحية كانت أو مادية .

— ١٣ —

ومهما قلنا .. ومهما كتبنا .. فسيظل في هجرتك
رسول الله (بعداً) لن نبلغه أبداً .. لأن أحداً منا لم يك
معك .. رفيقاً وصديقاً .. ليرى بأم عينيه بصرك وهو ي
الى الدولة التي ستقوم عما قريب .. في نهاية خطواتك صو
المدينة .. ولأن أحداً منا لم يكن الى جوارك ، مهاج
وغريباً .. ليسمع قلبك الكبير وهو ينبض بآمال وأمان
يحتملها قلب إنسان ، وينوء بها كل وجد إلا وجدك
رسول الله ، ذلك الذي ومع كل أمنية وكل أمل ، وخف
بانتظار الزمان الذي ستطأ فيه سنابك خيول أصحابك وأتباع
ديـــار المشارق والمغارب ، ممرغة في الوحل والتراب

لأنوف التي استعلت زيفاً وخديعة وكذباً على قيم الله وتوحيده المطلق !!

إن بعداً (غيبياً – روحياً) يكمن دائماً في كل خطوة خطوتها يا رسول الله. لأنك هيأت كل الممكنات الارادية، وتركت الباقي على الله، وهو ما لم ندرك منه الا صور المشيئة الالهية المباشرة تتنزّل نصراً حاسماً، وحماية دائمة، وايصالاً الى الأهداف البعيدة .. لكن حسّك الخفي، وصلتك الروحية بالله، ومناجاتك له، وحوارك العميق معه في ساعات الرعب والتغرّب والمطاردة، ستظل ابعادها خافية علينا: وانت القائل: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) !!

فعفواً، رسول الله، إن قصّرنا أو أخطأنا، ونحن نتحدث عنك في يوم هجرتك .. حديث المحبين الـــذين تحاصرهم القيود من كل مكان، وتسعى الى سحق مطامحهم ظلمات بعضها فوق بعض، فيلجأون اليك، مؤمّلين أن تمنحهم المزيد من التعاليم .. كسراً ثورياً للقيد، واستعلاءً

روحياً على الظلمات ، وحركة ايجابية صوب المصير الف
المتفرّد .

وما أحرى (الهجرة) أن تكون هذا الدرس ..

وألف سلام على (المهاجر) ..

معلمنا العظيم ! !

عماد الدين خليل

مطابع المختار الاسلامى